

الفصل السادس: ملفه اضطرابات الوعي (34)

تعرفته على العلم من النقد (1 من ؟)

(من أفيال فتحي غانم إلى مائة عام من العزلة مرورا بتجليات الغيطاني)

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/RakD24815.pdf>

بروفيسور يحيى الرخاوي

mokattampsy2002@hotmail.com - rakhawy@rakhawy.org

نشرة "الإنسان والتطور" 2015/08/24
السنة الثامنة - العدد: 2915



مقدمة:

بمواجهتي بما جاء في نشرة أمس، وما بها من اعترافي بصعوبة الموقف الدائري الذي يضطرنا أن نستمد المعرفة من منظومات لا يربطها ببعضها إلا فروض يكاد لا يمكن إثباتها، قلت أنظر في مسيرتي المعرفية بشكل تاريخي لعل أعر على بعض معالم مسيرتي مما قد يساعد في بعض الإيضاح: كيف نبدأ من حيث نستطيع.

انتهت نشرة أمس بتلويح غامض بدعوة للبداية من الفروض والنقد، وحين كتبت هذه الدعوة لم أكن أعرف كيف ذلك، وهأنذا أحاول:

يبدو أن تعرفي على ماهية الحلم بدأ من اجتهاداتي النقدية أكثر من خبرتي المهنية، طبعا فضلا عن خبراتي الشخصية التي لم توصلني إلى ما توصلت إليه عبر النقد والممارسة.

بمراجعتي لتاريخ طريقي سبل متاهة الأحلام اكتشفت أنني كتبت نقدي لرواية "الأفيال" لفتحي غانم سنة 1983 [1] ولم أكن بعد قد توصلت إلى فروض عن الإيقاع الحيوي وعلاقته بكل من نبض الإبداع ونوابية الحلم في آن، ذلك أنني نشرت أطروحتي عن هذه العلاقة في مجلة "فصول" بعد ذلك بعامين (1985) [2]، من نقدي لأفيال فتحي غانم:

في هذه الدراسة للأفيال بيّنت كيف أنني رأيت فيها: "علا شديداً للتكثيف، كثير التداخل، مفرطاً في الاستطراد" وقدرت أن هذا "القبر/الرحم" إنما يقع في الطبقة الأعمق من "الوعي الفردي" و "الوعي الجمعي" على حد سواء، حيث يُسقطُ الزمان (بمعنى التتابع المسلسل)، ويُسقطُ المكان (بمعنى الحدود والمسافات)، فلا تبقى إلا كيانات متقابلة دائرية مغلقة، تبحث في سرية عن نقطة تفجر جديدة. وقد ردد الكاتب في أكثر من موقع أن الأحداث تقع بين الصحو والنوم: فالكاتب يعلن في مباشرة محمودة نوع هذه الرواية، وأنه: "نوع من الرؤيا التي تفتح أبواب الخبرة الفردية المخترنة، وتعيد التأليف بينها في بنية جديدة.

غير أنني انتهت في نفس الوقت كيف استدرجت الحكّة الكاتب المبدع حتى كادت تبعدني عن مستوى الحلم الأعمق فأضفت:

ها هو يوسف (بطل الرواية) في الأفيال يعلن مباشرة قائلاً:

"الخطر الحقيقي أرى ما زلت أفكر. لقد جنّت إلى هذا المكان لأتحرر من هذه الأفكار التي تتربص بي"

إنه هرب من التفكير العادي إلى تفكير "آخر".

فأضفت: غير أن هذه الرواية التي تواصلت بكل المقاييس المعروفة للحلم، وبخاصة من حيث "التكثيف" وتجاوز الزمن الراتب حتى تلاشيهِ و "دائرية الحركة"، كانت فائقة الحكمة. حقيقة كانت خيوطها كثيرة ومتداخلة، لكنها خيوط متينة ومتصلة، بل شديدة الطول والتعقيد المنظم، وهي بهذا الوصف الأخير تتباعد قليلاً بل كثيراً عن مستوى الحلم الأعمق، حيث إن الكاتب خفف جرعة ما هو

يبدو أن تعرفي على ماهية العلم بدأ من اجتهاداتي النقدية أكثر من خبرتي المهنية، طبعا فضلا عن خبراتي الشخصية التي لم توصلني إلى ما توصلت إليه عبر النقد والممارسة.

"الخطر الحقيقي أرى ما زلت أفكر. لقد جنّت إلى هذا المكان لأتحرر من هذه الأفكار التي تتربص بي". إنه هرب من التفكير العادي إلى تفكير "آخر".

"... هو عمل بين الرواية والسيرة الذاتية والشعر". يضعنا مباشرة في جو الحلم، حيث "النائم يرى ما لا يراه اليقظان وحيث التفكير والانسلاخ يعلنان صراحة

حلم بنسج روايته فى نسج منمنم متين، حبك به التناثر، وسلسل الأحداث حتى كادت معالم الحلم تخفى.

أكتشفت الآن (2015) كيف ظهرت مستويات الحلم، واحتمال نقله من مستوى إلى مستوى أسطح، فى نقدى الذى لم أتبين حقيقة أبعاده إلا بعد ثلث قرن، فرجحت أن هذه المستويات كانت حاضرة فى وعى ناقدنا قبل تبلور الفروض التى فصلت ذلك تفصيلا.

ثم إنى عثرت على عمل نقدى آخر، بدا لى أكثر دلالة برغم أنه لى لم ينشر بعد حتى الآن، وهو بعنوان: "تكثفات الوالدية ووصاية المعتقد فى تجليات الغيطانى" وهأنذا أسمح لنفسى - برغم أنه لم ينشر - بأن أقطف منه ما يلى:

"... هو عمل بين الرواية والسيرة الذاتية والشعر"، يضعنا مباشرة فى جو الحلم، حيث "النائم يرى مالا يراه اليقظان وحيث التفكير والانسلاخ يعلنان صراحة كما نقرأ فى هذه المقطعات [3]:

"...فصل رأسى عن جسدى" فصرت أنظر إلى جثة نفسى..."

"أصبح لى ظلان بعد أن كان لى ظل واحد...، لكن بدت ذراعى غريبة عنى، خاصة يدي"
"وأنا رأسى مقطوع بلا جسد، لكننى رأيت جسدى يمضى أمامى، أمام أبى.. يتصل برأس لى هو رأسى... وحن رأسى إلى جذعى، ورقت هامتى لجذرى..."

فجاءت قراءتى لهذه المقطعات كالتالى:

"هنا نرى قدرة التحمل الإبداعى لمواجهة تفكير فعلى لصورة الجسد (بل للجسد إذ هو كيان داخلى)، مما لا يحدث إلا فى المراحل الأولى المقابلة لتنشيط الحلم. لكن المبدع الذى يتحمل مواجهة هذه المرحلة المبكرة، فيستطيع أن يحتويها فى نسج أكبر، هو غير من يسارع بضمها، أو رتقها بخيال مفكر أكثر منه مبدعا. على أن التجزئ كان أحد صور التفكير المكررة، لكن ثمة إعلان لنوع آخر من التفكير حيث تتباعد الكيانات مستقلة. حين قال:

"كأنى قسمت إلى عدة أشخاص يحركهم عقل واحد..."

وهكذا ميزت عند الغيطانى أيضا مستويين للإبداع، مستوى اسميته التكتيف الحلمى، والآخر رفضت غلبة المعتقد على المبدع، حين أضفت:

"ويستمر التكتيف الحلمى. وتستمر معالم الحلم وتشكيلاته طوال التجليات، اللهم إلا حين يقترب الكاتب فى حماسة عالية الصوت من تحيزاته العقائدية، فتغلب الخطابة، ويتوارى الحلم كثيرا أو قليلا. كما كان الزمن، طوال أغلب التجليات، هو الزمن المتجاور، فكيف الحال فى التجليات حيث تتجاور، وتتضفر البدايات والنهايات..."

"..عرفت وأنا أدنو من أبوابها أن الليل لايلج النهار هنا، وأن الأوقات لا تتغير كما عهدت، وإنما تتجاور متتالية..."

وأحيانا يعلن الغيطانى دوران الزمن مباشرة:

"تدور الأيام فى الأسابيع، والأسابيع فى الشهور..." (لاحظ حرف "فى")

وتصبح الأماكن فى متناول المتجلى معا:

"فرحلت إلى عدة أماكن فى وقت واحد"

ثم أنتقل إلى عمل عالمى أشهر هو "مائة عام من العزلة" (جابريل جارتيا ماركيز) [4]

حيث قدم فيه جارتيا المبدع مزيجا متوازنا من قوانين الحلم وقوانين اليقظة، يتمثل ذلك مثلا فى حضور الموتى، وإحيائهم، فى مقابل وقائع الحرب والزواج المحددة، كما يتمثل فيما أسماه س. سيجر: الزمن الحسابى فى مقابل: زمن الذاكرة [5] وهذا مايقابل ماسبق أن أشرت إليه تحت اسمى "الزمن التتابعى" فى مقابل "الزمن الترابطى (المتداخل)".

من ناحية أخرى: إن هذه الرواية لماركيز تؤكد معنى الواقعية كما حددناه هنا، مما أسميناه: الواقعية البيولوجية، يعلمنا ماركيز مثلا كيف: "أن الموتى (ملكيداس، أو برودينسو أجويلار) يظنون

لكن ثمة إعلان لنوع آخر من التفكير حيث تتباعد الكيانات مستقلة. حين قال: "كأنى قسمت إلى عدة أشخاص يحركهم عقل واحد..."

"..عرفت وأنا أدنو من أبوابها أن الليل لايلج النهار هنا، وأن الأوقات لا تتغير كما عهدت، وإنما تتجاور متتالية..."

يعلمنا ماركيز مثلا كيف: "أن الموتى (ملكيداس، أو برودينسو أجويلار) يظنون أحياء؛ فوجودهم بوصفهم معلومات فى المخ هو كيان قابل للتنشيط، فهو "حقيقة بيولوجية (وليست ذكري تجريدية) تظهر فى الحلم كما تظهر فى الإبداع الروائى بنفس الموضوع والمباشرة

"وأخذوا يرون فى هذه الملوسة، وضوح الرؤية المخيطة للصور التى تكون أحلامهم... بل أخذ كل منهم يرى صور أحلام الآخرين حتى لكان البيت امتلا بالزوار..."

أحياء؛ فوجودهم بوصفهم معلومات في المخ هو كيان قابل للتنشيط، فهو "حقيقة بيولوجية (وليس ذكرى تجريدية) تظهر في الحلم" كما تظهر في الإبداع الروائي بنفس الوضوح والمباشرة [6].
كذلك فإن تعامل ماركيز مع الأشياء باعتبارها عوالم حية، هو أيضا من القبيل نفسه، لكنى أفتطف هنا مقطعا هاما يعلن قدرة الكاتب على التعرف على المخ، من الداخل، بشكل عياني مباشر؛ الأمر الذى يحدث فى عمق الحلم دون حكايته عادة. وقد أسقطه جارثيا، محتوى ووظيفة، إلى الخارج، مجسدا فى الواقع، وذلك حين أصاب القرية وباء الأرق، وماترتب عليه من مضاعفات فقدان الذاكرة، وتعليق لا فتات للتعرف... إلخ حتى رأيت جارثيا وكأنه يتجول فى كواليس المخ بما فيها من كيانات حية متحركة فى أنحاء البيت، إذ يقول:

"وأخذوا يرون فى هذه الهلوسة، وضوح الرؤية المخيف للصور التى تكون أحلامهم... بل أخذ كل منهم يرى صور أحلام الآخرين حتى لكأن البيت امتلأ بالزوار.....".

وبعد:

أوقف هنا قبل الدخول إلى نجيب محفوظ الذى اعتبرت مواكبتى لمسيرته الحلمية الإبداعية من أهم ما هدانى إلى طبيعة الحلم، والتي أعتقد أيضا أنها سوف تستغرق أكثر من نشرة، فألى الأسبوع القادم.

للـ يحيى الرخاوى: قراءة فى أفيال فتحي غانم "الموت، الحلم، الرؤيا (القبر/الرحم) مجلة الإنسان والتطور - عدد يوليو 1983 - (ص108-136).

للـ يحيى الرخاوى: "الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع" مجلة فصول (المجلد الخامس-العدد الثاني-1985)

للـ جمال الغيطانى: "التجليات الاسفار الثلاثة" مجلة "فصول" - المجلد الثاني - العدد الثاني - 1982م

للـ جابريل جارثيا مركز "مائة عام من العزلة" ترجمة: سامى الجندى، إنعام الجندى.

دار الكلمة (1980) - بيروت. (دراسة نقدية لم تنشر).

للـ سيزار سيجر: "استدارة الزمن عند جارثيا ماركيز" ترجمة: اعتدال عثمان "ص82" (المجلد الأول-العدد الثالث- أبريل 1981- مجلة فصول) وهذا الاصطلاح ينبغى مراجعته لأنى متحفظ على استعمال كلمة الذاكرة هنا. إن مدرسة "العلاقة بالموضوع" تفرق بين الذاكرة والموضوع الداخلي، وهى تفرقة ليس لها علاقة بالبيولوجى، حيث أن هذه المدرسة تهاجم حتى بيولوجية فرويد الغرائزية المتواضعة، ولكنى أستفيد من هذه التفرقة لأنبه على أن المسألة ليست ذكريات تتداخل، بل هى واقع موضوعات، ثم أختلف مع ميلانى كلاين ولو فى التسميات، فالموضوعات عندى كيان بيولوجى حى بالمعنى الأوسع لما هو بيولوجى.

للـ يحيى الرخاوى: العزلة والخلود ودورات الزمن فى "مائة عام من العزلة" قراءة لم تنشر.

*** **

إن مدرسة "العلاقة بالموضوع" تفرق بين الذاكرة والموضوع الداخلي، وهى تفرقة ليس لها علاقة بالبيولوجى، حيث أن هذه المدرسة تهاجم حتى بيولوجية فرويد الغرائزية المتواضعة

أستفيد من هذه التفرقة لأنبه على أن المسألة ليست ذكريات تتداخل، بل هى واقع موضوعات، ثم أختلف مع ميلانى كلاين ولو فى التسميات، فالموضوعات عندى كيان بيولوجى حى بالمعنى الأوسع لما هو بيولوجى.

الإنسان والتطور

الإصدار التاسع - خريف وشتاء 2014 / 2015

ملف الوجدان واضطرابات العواطف

أ.د. يحيى الرخاوى

تنزيل كامل الإصدار

http://www.arabpsynet.com/pass_download.asp?file=1002

الفهرس

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/eBT9/eB9YRCont&Chap1-2.pdf>

دليل الإصداراته السابقة

<http://www.arabpsynet.com/Rakhawy/IndexRak.htm>